

كتاب في مقال : صنع العدو ..أو كيف تقتل بضمير مرتاح (1)



الثلاثاء 15 مارس 2016 10:03 م

بقلم وليد شوشة:

الكتاب من تأليف بيار كونيسا وترجمة نبيل عجان ، ومنشور ضمن سلسلة ترجمان الصادرة عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، الطبعة الأولى بيروت، أيار/ مايو 2015
والمؤلف كان يشغل منصب أحد مديري مفوضية الشؤون الاستراتيجية التابعة لوزارة الدفاع الفرنسية ، ثم منصب المدير العام للشركة الأوروبية للذكاء الاستراتيجي، وهو مكتب دراسات مهم .

يحتوي الكتاب علي تمهيد ومقدمة وثلاثة كتب وخاتمة .
يوضح المؤلف في المقدمة الهدف من الكتاب فيقول أنه : " يرنو إلي تحليل كيفية نشوء علاقة العداوة ، وكيف يُبني المتخيل قبل الذهاب إلي الحرب، وقبل دراسة أشكال العنف، مهما كانت فإن ما يهمنا هو الطريقة التي تجعل العنف شرعياً ومقبولاً ؛ إذ في الدول الديمقراطية يجب علي الحرب أن تكون " ديمقراطية " والحرب هي ترخيص ممنوح شرعياً لقتل أناس لا نعرفهم (أو أحياناً نعرفهم حق المعرفة علي غرار الحروب الأهلية) لكنهم يتحولون فجأة إلي طرائد يجب تعقبها والقضاء عليها" والحرب : اللحظة "الغير طبيعية" في حياة البشرية ، لأنه من يرفض قتل العدو يُعاقب بالموت ، ولذا يجب علي القاتل أن يقتل عن طيب خاطر ، وأن يكون مقتنعاً بما يفعل .
كيفية صناعة العدو □□ يقول هنري ميشو: (إن تحديد الأعداء والأصدقاء والتحقق منهم يشكل آلية ضرورية قبل شن الحرب). ويرى المؤلف أن صناعة العدو كثرت علي مر التاريخ ، منها " الخطر الأصفر" وكان من اختراع غيوم الثاني، بغية تبرير مشاركة ألمانيا في تقسيم الصين . ثم ظهرت " ألبيون الغدارة " وهو وصف أطلقه الفرنسيون علي بريطانيا العظمي متهمه إياها بمنع فرنسا من الاستعمار بطريقة هادئة . و" المؤامرة اليهودية - الماسونية " للبلوتوقراطيين (أي الأثرياء المتنفذين) التي ازدهرت في فترة ما بين الحربين العالميتين ، والتي استخدمت لتبرير المحرقة النازية (الهولوكوست) وتجريد حملات الاعتقال □□ وخطاب الرئيس بوش في 29 كانون الثاني/يناير 2002 والذي يشير بشكل أحادي إلي بلدان "محور الشر" الثلاث مثلاً معاصراً للإنتاج المصطنع للأعداء قدمته أقوى ديمقراطية في العالم □□
ويري كونيسا بأن حرمان الغرب من العدو ، هو إبطال تقني للقطاع الاستراتيجي الغربي ، مستشهداً بالمقولة الشهيرة لألكسندر أرباتوف المستشار الدبلوماسي لميخائيل غورباتشوف "سنقدم لكم أسوأ خدمة ، سنحرمكم من العدو!" بيد أن النزاعات والتلويحات بالحرب لم تنخفض عددياً ، ربما قلت خطورتها بعض الشيء ، حيث أصبحت إقليمية ، ويبدو لنا أحياناً مبهمة □□
ولكن من أين يأتي الاحتراب ؟ يجيب كونيسا: "يجد الاحتراب جذوره في حوادث الواقع ، لكنه كثيراً ما يجدها كذلك في بني أيديولوجية ، وفي تهيوّات أو أشياء مبهمة".

ويري بأن الديمقراطية ليست حاملة للسلام بذاتها ، وإلا لما قامت الاستعمارات الفرنسية والبريطانية قط ، ولما وُجد الأميركيون في العراق ، ولما استعمر الإسرائيليون الأراضي المحتلة .

كما أن الأنظمة الدكتاتورية ليست كلها داعية إلي الحرب فنظام "ميانمار" العسكري أو برتغال " سالازار" هما خير مثال .
ويري أن الدكتاتورية تكتسب الأعداء بسهولة وبساطة سواء كان عدواً داخلياً ، كما الحال بالنسبة إلي الدكتاتورية العسكرية البيرومانية ، أو عدواً خارجياً كما الحال بالنسبة إلي الجنرالات الأرجنتيين الذين أعادوا إحياء المطلب المتعلق بجزر الفوكلاند البريطانية .

أو خلط الاثنين معاً كما الحال بالنسبة إلي النظام الهتلري الذي حدد عدوه ، أي اليهود والأعراق البشرية الأدنى ، والديمقراطيات وفرنسا والشيوعيين ... إلخ □□ أو الستالينية التي نددت بالتروتسكيين والبوخارينيين والجواسيس وأعداء الاشتراكية والامبرياليين □□
والدول الديمقراطية لا تختلف كثيراً عن الدكتاتورية ، فمثلاً الهند والتي هي أعظم ديمقراطية في العالم ، وقد اكتسبت لقب " بلد اللاعنف " مع المهاتما غاندي ، قادت ستة حروب خارجية (أربعة ضد باكستان ، وواحدة ضد الصين، وتدخلت في سريلانكا) وقادت هجوماً عسكرياً كعملية شرطة داخلية علي "معبد أمريتسار الذهبي" لتحطيم الحركة القومية للشيخ □□ وعلي النقيض من ذلك ، الصين التي تُقدم علي أنها بلد مُهدّد ، مع أنها لم تتدخل منذ عام 1949 إلا في نزاعين خارجيين (كوريا والهند) وقامت بإعادة غزو استعماري للتبت .
ويري حقيقة الديمقراطية بأنها مجترأة ، وتنقسم الرؤية حيالها إلي وجهتي نظر "فتأسيس دولة إسرائيل بالنسبة إلي يهود العالم كله نهاية اضطهاد طويل بلغ ذروته في الإبادة التي ارتكبتها الأوروبيون ، لكن ليس لها أي معنى في البلدان الإسلامية التي أمنت بشكل واسع ، وعلي مدي قرون عدة ، الحماية والأمن لليهود الذين طردهم المسيحيون □□

من يصنع العدو؟ يقول كونيسا : بأنه منذ الثورة الفرنسية ، لم يعد الملك هو الذي يقرر الحرب أو السلم بمفرده ، بل يلزم نشوء قوميات ونزاعات عالمية موافقة للرأي العام؛ لكونه العامل الأساس للتعبئة الحربية

مراحل صنع العدو : أيديولوجيا استراتيجية محددة ، خطاباً ، صناع رأي ندعوه المحددين ، وأخيراً آليات صعود نحو العنف

محددي العدو : متعددون ومختلفون بحسب أنواع النزاعات ، وهم ليسوا المحللين الأكثر دقة للوضع ، لكنهم الأكثر تأثيراً . لقد كان وزن ديروليد في فرنسا أهم من جوريس في النزاع العالمي الأول ولقد أُنقذ كيلينغ وبيار لوتي الرأي العام بثقافة الإمبريالية بشكل واسع وانتجت هوليوود كمية كبيرة من أفلام رعاة البقر حول غزو الغرب الأمريكي التي عاشها المشاهدون لمدة طويلة باعتبارها ملحمة عظيمة مؤسسة، فيما كان الأمر يتعلق بإبادة ممنهجة لقبائل الهنود الحمر

أشكال العدو : العدو القريب " هو الجار، والنزاع معه جراً خلاف حدودي .

"الخصم العالمي" المنافس في خصومة قوتين تعطيان لنفسهما نزعة عالمية ، أو تنافس الإمبرياليات في سياق الاستعمار " العدو الحميم" الحرب الأهلية ، الاقتتال بين جيران كانوا يبدون أنهم يعيشون في سلام ، تبدأ الحرب بالكلمات ثم تنتهي بالقتل الاستباقي : أن نقتل قبل أن نُقتل! " العدو الهجمي " هكذا يعتبر المحتل الشعب الذي يحتله ، والعدو هو الشعب الذي يعاني الاحتلال ، والقمع هو " إخلال السلام " . " العدو المحجوب " قوة خفية ، وهاجس ناجم عن " نظرية المؤامرة " والتي كانت أساس الانقلابات العسكرية في أمريكا اللاتينية ضد "الشيوعيين". " حرب الخير ضد الشر" لا تقتصر علي النزاعات الدينية؛ إذ هي حرب الأنظمة الشمولية الكبيرة العلمانية في القرن العشرين، كانت الأيديولوجيات قاتلة مثل الديانات ، والآخر هو "الشر" بل حتي "الشیطان" ويجب إبادته . " العدو التصوري" هو فعل إمبريالي للقوة العظمى ، وهو وضع فريد عرفه العالم تحت رئاسة جورج بوش الابن . ليس لديه عدو يجاربه ، لا يمكنه سوي محاربة مفاهيم في صراع شامل، والحرب هنا وقاية . " العدو الإعلامي" يجتاحها الإعلام ؛ إذ تتفوق الصورة علي النص . ويتحدد التهديد عبر مثقفين إعلاميين، ومشتتين و/أو أشخاص يعملون في المجال الانساني ويؤدي هذا التهديد إلي أعمال عسكرية من دون عدو

وكتب فريدريش نيتشه " إن من يحيا علي محاربة عدوه، من مصلحته أن يدعه يعيش "

هل من الممكن تفكيك العدو ؟ نعم من الممكن تفكيكه ، كالمصالحة التاريخية بين فرنسا وألمانيا ، بعد ثلاثة حروب مدمرة بين عدوين يوصفان بأنهما " وراثيان". ولم يكن بناء الاتحاد الأوروبي الذي يتقدم عبر التفاوض ، إلا بثمن معائل .

ومن طرق تفكيك العدو ... التكفير عن الذنب ، العفو ، الاعتراف، الذاكرة المشتركة ، العدالةولاقت نجاحات مختلفة ، ففي إسبانيا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية ، فضلت قوانين العفو النسيان علي العدالة والعقاب ، من أجل تشجيع العودة إلي الديمقراطية

ومع إنشاء العدالة الدولية ، يتكفل العالم بمعاينة مرتكبي الجرائم ضد الإنسانية أو الإبادة العرقية ولكن يجب ألا تبقى مقتصرة علي ملاحقة مرتكبي المجازر المنحدرين من بلدان فقيرة أو دكتاتورية . فمن يحاكم من ؟

المقالات المنشورة تعبر عن رأي كاتبها فقط ولا تعبر بالضرورة عن رأي الموقع